مشاهد السحر في القرآن الكريم: البقرة أنموذجاً

أ.د. عبد الباسط أحمد مراشدة

د. حسين منصور العمري

الملخص الغاية من هذه الدراسة هو إلقاء الضَّوء على مشهد في النَّص القرآني الكريم يثير قصصاً وحالات من التَّلقي عند غير مفسِّر، كما يُثير قصصاً خارج النَّصِّ القرآني، وهذا المشهد هو الوارد في الآية التي تتحدث عن السحر في قوله تعالى: ﴿**واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان...**﴾.

وتعد الآية المذكورة هي الآية الأولى التي تناولت موضوع السَّحر من جهة ترتيب السور القرآنية في سورة البقرة، والآية تحوي لغة مشبعة بالإيحاء إلى نصوص غائبة كثيرة، منها علاقة سليمان بالسحر، وعلاقته بهاروت وماروت، وعلاقة الجن به أيضاً، وهي نصوص قائمة على السرد.

والدراسة وفق ذلك ستقوم بقراءة النصوص الغائبة المرتبطة بالنص القرآني وارتباطها بالغرائبي والعجائبي (الخوارقية)، وقراءة السمات الفنية للقص داخل المشهد القرآني وخارجه من النصوص الغائبة، وستركز أيضاً على بيان تقنيات السرد في المشهد القرآني من خلال خيارات اللغة الغنية بالنصوص، وفي الخارجة عنه.

كما ستقوم الدراسة باستقصاء تلقي النص القرآني الحاضر والنصوص الغائبة في جهود المفسرين المتنوعة.

وستقدم هذه الدراسة رؤية مكتملة للمشهد القرآني والنصوص الغائبة وعلاقتها بتلقي المفسرين.

الكلمات المفتاحية: سحر، سورة البقرة.

(Scenes of magic in the Holy Quran: Surat al-Baqarah is a model)

Abstract The aim of this study is to shed light on a scene in the Quranic text that raises stories and cases of being received from non-interpreter. It also raises stories outside the Qur'anic text. This scene is mentioned in the verse that talks about magic in the verse: "And they follow what devilish being used to chant against the authority of Solomon "The verse mentioned above is the first verse that dealt with the subject of magic in terms of the arrangement of the Quranic Surat in Surat al-Baqarah. The verse contains a language full of implications to many absent texts, including the relationship of Solomon with magic, his relation with Harut and Marut, and the relationship of the jinn with him also. Then these are text-based narratives.Accordingly the study will read the missing texts related to the Quranic text and its connection to the myth and the fable (superstition), and to read the artistic features of the narration within the Qur'anic scene and beyond the missing texts. It will also focus on narrative techniques in the Qur'anic scene through text-rich language options.The study will also examine the current Quranic text and the missing texts in the efforts of the various interpreters.This study will provide a complete view of the Qur'anic scene and the missing texts and its relation to the reception of the interpreters.

Keywords: Magic, Surah Al-Baqarah

السحر: المعنى والتأصيل:

يُعدُّ السَّحر في المفهوم العام أمراً خاضعاً وفق قراءات الغرائبي والعجائبي (الخوارقية) (أبو ديب، كمال، 2007م، ص8). وهو مفهوم يُثير عوالم خياليَّة متنوِّعة وخاصَّة في قصصه.

وقد وردت لفظة (سحر) في القرآن الكريم في مواطن كثيرة، ووفق حضور متنوِّع وصيغ متنوِّعة أيضاً؛ إذ حضرت لفظة سحر منفردة في غير آية، وحضر في مشاهد ترتبط بالقص أو المشاهد في النَّصِّ القرآني.

وقد جاءت لفظة (سحر) وصورها في الآيات القرآنيَّة في المكيَّة في ثمانية وخمسين موقعاً، ومرّة واحدة في السور المدنية، في سورة البقرة. (عبد الباقي، محمد فؤاد، 1945م).

وحضرت في أكثر من صيغة؛ ومن ذلك: تَسحَروا، ولتسْحَرنا، وتُسْحَرون، وسِحْرٌ، وسِحْرِهم...

ولم يقدم المعجم اللغوي، أي إشارات تدلُّ على الحضور الغرائبي والعجائبي فيهما، وإنما مس المعنى دون دلالة على ذلك الحضور. يقول الأزهريُّ (الأزهري، محمد بن أحمد، 2001م)، وينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت، (م6) مادة (سَ حَ رَ).: "السِّحْرُ عملٌ تقرّب فيه إلى الشَّيطان وبمعونةٍ منه، كلُّ ذلك الأمر كينونةٌ للسِّحر الأُخذَةُ التي تأخذ العينَ حتى يظنَّ أن الأمر كما يُرى وليس الأصل على ما يُرى"... ويقول ابن منظور: "والسحر خديعة... والساحر العالم. والسِّحر الفساد... وقيل: طعام مسحور: مفسود...". وهناك معان لغوية كثيرةٍ تشير إلى معاني السِّحر وخاصَّة تلك المرتبطة بالنّصوص القرآنيّة. (ليزول، رشيد، ومصلي، إدريس، 2001م، ص159-164).

ويرتبط تأصيله بقَصَص ربما تكون خرافية أو غرائبية وعجائبية، وخاصة فيما يمسُّ الآية القرآنيَّة مدار البحث.

ما رواه ابن جرير الطبري بإسناده: "عن شهر بن حوشب قال: لمّا سُلب سليمانُ عليه السلام مُلكه، كانت الشياطين تكتب السحر في غيبة سليمان، فكتبت: مَنْ أراد أن يأتيَ كذا وكذا، فليستقبل الشمس وليقل كذا وكذا، ومن أراد أن يفعل كذا وكذا، فليستدبر الشَّمس وليقل كذا وكذا، فكتبتْهُ وجعلتْ عنوانه: هذا ما كتب آصف بن برخيا للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم، ثم دفنته تحت كرسيِّه، فلمّا مات سليمان عليه السلام قام إبليسُ خطيباً، فقال: يا أيها الناس، إن سليمان لم يكن نبيّاً، إنما كان ساحراً، فالتمسوا سحره في متاعه وبيوته، ثم دلَّهم على المكان الذي دُفن فيه، فقالوا: والله لقد كان سليمان ساحراً! هذا سحره! بهذا تعبَّدنا، وبهذا قهرنا، فقال المؤمنون: بل كان نبيّاً مؤمناً، فلمّا بعث الله النبيَّ محمَّداً – صلى الله عليه وسلم – جعل يذكر الأنبياء، حتى ذكر داود وسليمان، فقالت اليهود: انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء، وإنما كان ساحراً يركَبُ الريح، فأنزل اللهُ عُذْر سليمان ﴿**وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾. (الطبري، محمد بن جرير، 2000م).

والسِّحرُ أنواع، منه ما هو متصل بالجن ومنه ما هو غير ذلك على ما سيأتي بيانه.

أنواع السِّحر:

يُخطئ من يظنُّ أن السِّحر نوع واحد فقط، إنما هو في الحقيقة أنواع متعدِّدة متشعِّبة، يصعب حصرها وعدُّها لكثرتها، لكن يمكن من باب التَّسهيل والتَّوضيح أن نقسمها إلى سبعة أنواع رئيسة، وهي: (أدهم، إبراهيم، 1998م، ص17-18).

1. السِّحر الذي يعتمد على خصائص المادة.
2. السِّحر الذي يعتمد على عالم الجن.
3. السِّحر الذي يعتمد على الفلك والحساب.
4. السِّحر الذي يعتمد على قوة الإيحاء.
5. السِّحر الذي يعتمد على قوى النَّفس.
6. السِّحر الذي يعتمد على الآلات الميكانيكيَّة.
7. السِّحر الذي يعتمد على خفة الحركة. (أدهم، إبراهيم، ص17-18).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مفهوم السحر فيما ورد في غير مرجع وتفسير يرتبط بالقص خارج النَّص القرآني، بمعنى أن النص القرآني وتلقِّيه يرتبط بأسباب النُّزول أولاً، وفي نصوص قصصية خارجة ثانياً، ولذلك فإن النَّصَّ يُتيح للمتلقي أن يُقيم علاقات التَّفسير والقراءة خارج حدود النَّصِّ القرآني نَفْسِه في جانب، وفي النُّصوص القرآنيَّة في جانب آخر.

السحر في سورة البقرة:

وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿**وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ**﴾. (سورة البقرة، آية: 102).

فهذه الآية القرآنية هي مدار البحث، وهي آيةٌ اشتملت على فراغات متنوعة تتيح للمتلقِّي أن يقيم نشاطه فيها في أطر كثيرة، فهي توضيِّح مدى ارتباط الجنّ بسيدنا سليمان وعلاقتهم به، وكذلك في أسماء أخرى خارج النَّصِّ القرآني مثل (هاروت وماروت) وعلاقتهما في الخرافة في جانب من جوانبها وفي الواقع القرآني في جانب آخر، إذ ترتبط بقوله ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ (سورة البقرة، آية: 30). كما وترتبط الآية الحالية – الوارد فيها إخباره تعالى بأنَّه شاء أن يجعل الإنسان في خليفة الأرض – بقصص أخرى وهي قصص خارج النَّصّ القرآني.

إذن، فهذه الآية التي هي مدار البحث تثير أكثر من قصة وعلاقة خارج النص القرآني وداخله، إذ التقط المفسرون هذه الخاصية في الآية ليربطوها بنصوص متنوعة وبقصص كثيرة خارج النص القرآني، فحَرَصَ كثير منهم على أخذِ بؤرة من السرد في النص القرآني غايةَ بناءِ قصصٍ كثيرةٍ حولها، وجُلُّ هذه القصص إنما يقوم على السرد فيها على الغرائبي والعجائبي أولاً، كما وأنه لا يرتقي لأن يُنسبَ إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم– ثانياً.

إلا أن هذه القصص المرتبطة بقصص القرآن لها حضور سردي، يمكن أن يُقرأ وفق أبعاد سردية فنية جميلة، تثير الملتقي وتَحْدُوه لدرسها، مع أنها في الوقت نفسه تُعَدُّ من الخرافة أو ما يعرف بكونه من (الإسرائيليات).

القصة الأولى: (علاقة بسليمان عليه السلام بالسحر):

ما برحت الآية مدار البحث تومئ مرّةً إلى نصوص غائبة تتعالق مع النصوص القرآنية داخل القرآن الكريم، ومرّةً إلى نصوص غائبة خارجه، وهذه سمة أسلوبية امتازت بها الكثير من الآيات القرآنية.

وممّا ينبغي التنويه إليه، هو أن قوله: ﴿**وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ**﴾، يُعدُّ مشهداً متكئاً على غير قصة في النص القرآني والنصوص الأخرى.

فقولُه: (واتبعوا) أي: نبذوا كتاب الله واتبعوا. (ما تتلوا الشياطين) يعني: واتبعوا كتب السحر والشعوذة التي كانت تقرؤها. (على ملك سليمان) أي: على عهد ملكه وفي زمانه. وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع، ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة، وقد دونوها في كتب يقرؤونها، ويعلمونها الناس، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا: إن الجن تعلم الغيب. وكانوا يقولون: هذا علم سليمان، وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم، وبه تسخر الإنس والجن والريح التي تجري بأمره. (وما كفر سليمان) تكذيب للشياطين، ودفعٌ لِما بَهَتَتْ به سليمان من اعتقاد السحر والعمل به، وسمّاه كفراً. (ولكن الشياطين) هم الذين (كفروا) باستعمال السحر وتدوينه. (الزمخشري، ص89، والقرطبي، 2006م، ص269–270، وابن عاشور، 1984م، ص627، والرازي، الفخر، 1993م، ص220–222، والشوكاني، 1993م، ص176، والألوسي، 1991م، ص512–513، والقاسمي، 1978م، ص207–209، وقطب، سيد، 1967م، ص126–130).

ومما جاء عند الطبري ما رواه بإسناده عن السُّدِّيّ من حضور من حكائي مرتبط بالنصوص خارج القرآن قوله: "كانت الشياطين تصعد إلى السماء، فتقعد منها مقاعد للسَّمع فيستمعون من كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موت أو غيث أو أمر، فيأتون الكهنة فيُحبرنوهم، فتُحدّث الكَهَنةُ النَّاسَ فيجدونه كما قالوا، حتى إذا أمنتهم الكهنةُ كذبوا لهم، فأدخلوا فيه غيره، فزادوا مع كلِّ كلمة سبعين كلمة، فاكتتب الناس ذلك الحديث في الكتب، وفشا في بني إسرائيل أن الجنّ تعلم الغيب، فَبُعِثَ سليمانُ في الناس، فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق، ثم دفنها تحت كرسيِّه، ولم يكن أحدٌ من الشياطين يستطيع أن يَدْنُو من الكرسيِّ إلا احترق، وقال: لا أسمع أحداً يذكر الشياطين تعلم الغيب إلا ضربت عنقه، فلما مات سليمان، وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان، وخَلَف بعد ذلك خَلْفٌ، تمثل الشيطان في صورة إنسان، ثم أتى نفراً من بني إسرائيل، فقال: هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً؟ قالوا: نعم، قال: فاحفروا تحت الكرسي، وذهب معهم فأراهم المكان، فقام ناحيةً، فقالوا له: فاذْنُ، قال: لا ولكنني هاهنا في أيديكم، فإن تجدوه فاقتلوني، فحفروا فوجدوا تلك الكتب، فلما أخرجوها قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر، ثم طار فذهب، وفشا في النَّاس أنَّ سليمان كان ساحراً، واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب. فلما جاءهم محمد – صلى الله عليه وسلم– خاصموه بها. (الطبري، 1988م، ص444–445).

ولم يسند الطبري ما ورد في متن هذه الرواية الغرائبية العجائبية إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولكنه أسند أسباب النزول إليه.

غير أن نص الحكاية السابقة ربما يكون له ارتباط بسورة الجن في قوله: ﴿**وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا**﴾ (سورة الجن، الآية: 8–9)، ويبدو أن كثيراً من المفسرين قد ذهبوا هذا المذهب في وضع حد للسحر أو فهم قصة الشياطين الذين تلوا السحر على ملك سليمان.

ولعل المطلع على تلقي المفسرين لهذا المشهد الممتد خارج النص القرآني الكريم يجد أن ثمة تشابه فيما تلقوه من خلال هذه القصص القائمة في الغرائبي والعجائبي وكأنهم يتكئون على بعضهم في نقل هذه القصص وهي قصص تختلف عندهم إلا بالقليل.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه القصص القائمة على الخوارقية هي قصص تفقد عوالمها باختلاف المفسرين، حيث إن غير مفسر أشار إلى أن مفهوم الشياطين هو مفهوم بشري لا علاقة له بالجن (ابن عاشور، ص627، والرازي، الفخر، ص221، والألوسي، ص512، والعودات، رايق، 2007م، ص45) ، وإنما الشياطين هنا هم شياطين من الإنس، وبذلك يفقد هذا التفوق الخوارقي والقصة – ربما – كاملة.

ومع ذلك فإن النص أو المشهد القرآني لا يعطي قراءة واحدة ثابتة في إدراك الدلالة النهائية، وإنما يبقى قائماً ضمن التأويل وفق هذا الاختلاف ووفق حضور ارتباطات للنص داخل القرآن وخارجه.

فللنص ارتباط بسورة الصافات وسورة ص وسورة النمل ﴿**قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ، فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ، وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ، هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ**﴾. (سورة ص، آية: 35–40).

القصة الثانية: (هاروت وماروت):

ولا يختلف المشهد الثاني في حضور السحر وهاروت وماروت عن المشهد السابق من جهة ارتباطه بقصص خارج النص القرآني وداخله؛ إذ إن غير مفسِّر أشار إلى ارتباط هاروت وماروت بقول الله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾. (سورة البقرة، آية:30).

النص القرآني في الآية الأولى السابقة يرتبط بـ (هاروت وماروت) وفق قصٍّ خارج النصّ القرآني، وهو نص يرتبط بـ (إبليس) عليه اللعنة، وبالملائكة في حوار مع الذات الإلهية في جانب آخر من خلال قصص مرتبطٍ بالقرآن في جانب، وبالخرافة (الخوارقية) في جانب آخر، وكما هو الحال، فإن كانت القصة الآتية في توضيح مَنْ هما (هاروت وماروت) في حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم– فإن النص القصص يقترب من الحقيقة، وإن كانت القصة لا تصح عن الرسول – صلى الله عليه وسلم– فإن الفعل الغرائبي قائم فيها.

الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل، في مسنده بإسناده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سمع النبيَّ – صلى الله عليه وسلم – يقول: "إن آدم عليه السلام لما أهبطَه الله إلى الأرض، قالت الملائكة: أيْ ربِّ ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [سورة البقرة: آية (30)]، قالوا: ربَّنا نحن أطوعُ لك من بني آدم، قال الله تعالى للملائكة: هَلُمُّوا مَلَكَينِ من الملائكة حتى يُهبطَ بهما إلى الأرض، فننظُرَ كيف يعملان، قالوا: ربَّنا، هاروتُ وماروتُ، قال: فأُهْبِطا إلى الأرض ومُثِّلت لهما الزُّهرةُ امرأةً من أحسن البشر، فجاءَتْهُما فسألاها نفسَها، فقالت: لا والله، حتّى تتكلَّما بهذه الكلمة من الإشراك، فقالا: والله لا نُشرك بالله شيئاً أبداً، فذهبت عنهما ثم رجعت بصبيٍّ

تحمله، فسألاها نفسها، فقالت لا والله حتّى تقتُلا هذا الصبيَّ، فقالا: والله لا نقتله أبداً، فذهبت ثم رجعت بقَدح خمرٍ تحمله، فسألاها نَفْسَها، قالت: لا والله حتّى تشربا هذا الخمر. فشربا وسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبيَّ، فلما أفاقا قالت المرأة: واللهِ ما تركتُما شيئاً أبيتُماه علي إلا قد فَعْلتُماه حين سكرتُما، فخُيِّرا بين عذاب الدُّنيا وعذابِ الآخرةِ، فاختارا عذابَ الآخرة". بن حنبل، أحمد، 1421هـ-2001م، 10/317-318، الحديث رقم 6178).

وقد انقسم المفسرون وفق تصديق النص السابق إلى قسمين: فمنهم من يرى أن هاروت وماروت ملكان من الملائكة و(ما) في قوله (وما أنزل على الملكين) بمعنى العطف وبالتالي هما ساحران يتنزل السحر عليهما من السماء.

ومن المفسرين من يرى أن هاروت وماروت ملكان دنيويّان، أي شخصان معروفان، فتتحول القصةُ من حضورها الغرائبيّ إلى حضور حقيقي.

وقد أورد ابن كثير حديثاً في قصة هاروت وماروت بعدة أسانيد تنتهي بـ (نافع عن عبد الله بن عمر) وأخرى عن سالم عن ابن عمر (مرفوعة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

وكذلك فقد رُويَ في هذه القصة روايات وآثار عديدة عن بعض الصحابة والتابعين. رُوي عن علي وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وكعب الأحبار والسُّدي والكلبي ما معناه: أنه لما كثر الفساد من أولاد آدم عليه السلام- وذلك في زمن إدريس عليه السلام- عيَّرتهم الملائكة، فقال الله تعالى: "أما إنكم لو كنتم مكانهم، وركَّبت فيكم ما ركَّبت فيهم لعملتُم مثل عملهم"، فقالوا: سبحانك! ما كان ينبغي لنا ذلك، قال: "فاختاروا ملكين من خياركم" فاختاروا هاروت وماروت، فأنزلهما إلى الأرض، فركَّب فيهما الشهوة، فما مرَّ بهما شهرٌ حتى فُتِنَا بامرأة اسمها بالنَّبطية (بيدخت) وبالفارسية (ناهيل) وبالعربية (الزُّهرة) اختصمت إليهما، وراوداها عن نفسها فأبتْ إلا أن يدخُلا في دينها ويشربا الخمر ويقتُلا النَّفسَ التي حرَّم الله، فأجاباها وشربا الخمر وألمَّا بها، فرآهما رجل فقتلاه، وسألتهما عن الاسم الذي يصعدان به إلى السماء فعلَّماها فتكلَّمت به فعَرَجتْ فمُسِخَتْ كوكباً. وقال سالمٌ، عن أبيه، عن عبد الله: فحدَّثني كعبٌ الأحبارُ: أنها لم يستكملا يومهما حتى عملا بما حرَّم الله عليهما. وفي غير هذا الحديث: فخُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا فهما يعذَّبان في بابلَ في سَرَبٍ من الأرض، فجعلا في بابل منكوسين في بئر إلى يوم القيامة، وهما يعلمان الناس السحر، ويدعوان إليه، ولا يراهما إلا من ذهب إلى هذا الموضع لتعلم السحر خاصة[1].

---

[1] تفسير القرطبي (2/51- 52)، وقال بإثر هذا الخبر: "هذا كلُّه ضعيفٌ وبعيدٌ عن ابن عمر وغيره، ولا يصحُّ منه شيء...". رانيا رجب، حقيقة السحر بين الموروث والمنصوص، ص(35). وانظر أيضاً ابن كثير، ج1، ص(183) حيث أورد عن الضحاك بن مزاحم أنه كان يقرأ (وما أنزل على الملكين) بكسر اللام، ويقول: هما علجان من أهل بابل، ثم عقَّب على ذلك بقوله: ووجه أصحاب هذا القول الإنزال بمعنى الخلق لا بمعنى الإيحاء في قوله تعالى: (وما أنزل على الملكين) كما قال تعالى: (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج)[الزمر:1]، (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد)[الحديد: 25]، (وينزل لكم من السماء رزقاً)[غافر: 13]، وفي الحديث "ما أنزل الله داءً إلا أنزل له دواء"، وكما يقال: "أنزل الله الخير والشر" وحكى القرطبي عن ابن عباس وابن أبزى والحسن البصري أنهم قرؤوا (وما أنزل على الملكين) بكسر اللام، قال ابن أبزى: وهما داود وسليمان، قال القرطبي: فعلى هذا تكون ما نافية أيضاً، وذهب آخرون إلى الوقف على قوله: (يعلمون الناس السحر) وما نافية، قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا الليث، عن يحيى بن سعيد،

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاختلاف في القراءة والاختلاف في التفسير والتأويل، يُبقي النصَّ على مساحات وبياضات لا تُملأ من قِبَلِ المتلقِّي، ليبقى النصُّ حاضراً في الغموض وخاضعاً لقراءات متنوعة لا تسلم دلالتها النهائية إطلاقاً.

ومن أساليب هذا الحضور السردي في غير متن النص: أن الحكايات تتوالد من بعضها، وكما ذكرت سابقاً، فإن كثيراً من المفسرين قد ربطوا الآية السابقة الواردة في (هاروت وماروت) بإبليس وقصة الخلق وعلاقته بآدم عليه السلام، وكأن القصة المشار إليها من خلال الملكين تتعالق مع آية أخرى لها قصة أخرى خارج النص القرآني.

"وروي أن إبليس مرّ على جسد آدم بين مكة والطائف قبل أن يُنفخ فيه الروح، فقال: لأمرٍ ما خُلق هذا، ثم دخل في فيه وخرج من دُبره، وقال: إنه خلق لا يتمالك لأنه أجوف، ثم قال للملائكة الذين معه: أرأيتم إن فُضِّل هذا عليكم وأُمرتم بطاعته، ما تصنعون؟ قالوا: نطيع الله، فقال إبليس في نفسه: "والله لئن سُلِّطت عليه لأُهلكنَّه، ولئن سُلِّط عليَّ لأعصينَّه...". (الأندلسي، أبو حيان، 1993م، ص300).

ويبدو أن القصص في هذا الموضوع خارج النص القرآني يتسلسل في سرد متتالٍ، وهذا بدوره يدلُّ على أن ارتباط هذه الآية التي في سورة البقرة التي تشير إلى (هاروت وماروت) قادت إلى قصص كثيرة، وخاصة في خلق آدم عليه السلام، وفي حواره مع ربه وفي قصته مع حواء وغير ذلك.

وتجدر الإشارة إلى أن القصة القصيرة السالفة التي تحوي أبعاداً غرائبية وعجائبية إلى أنها اشتملت على جوانب مهمة في القص والسرد، كما أنها تضمَّنت حواراً ما بين إبليس والملائكة، وما بين إبليس مع نفسه (حواراً داخليّاً) ويظهر الحوار الداخلي له راوياً علمياً أيضاً وغير ذلك مما يقال في القص والسرد.

كما تجدر الإشارة إلى أن النص القرآني وفقاً للكثير من القصص التي أثارتها الآية مدار البحث تجعل منه نصاً مفتوحاً لكثير من القراءات والتأمُّلات والتأويلات وأولها، النَّظر في هذا القصص وفي أسلوب السرد التتابعي وفي اللغة المحكيّة فيه، وهو الذي اختلف المفسرون في تأويله، ليبقى النصُّ قائماً في فراغات أو بياضات كثيرة، تسمح للمفسرين أو المتلقين النَّظر فيه وقراءته مرّات عديدة ومستمرة، وكل ذلك يجعل النص القرآني (الآية أو الآيتين أو أكثر) يقع ضمن التأويل الذي لا يسمح بقراءة نهائية قاطعة، فالنَّصُّ المؤوَّل يمنع أن يُسلِّم دلالته النهائية لمجردّ قول مفسِّرٍ، أو لتأويل متأوِّل، إذ إنّ مضمون بعض آياته المتمثلة على بعض القصص الواردة فيه، يفتح الباب واسعاً لتداخُل بعض النصوص الخارجية عنه، والتي لا تخلو من الحالات الغرائبية على نحو ما ورد في هذه الآية مدار هذا البحث.

عن القاسم بن محمد، وسأله رجل عن قول الله (يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) فقال: الرجلان يعلِّمان الناس ما أنزل عليهما ويعلمان الناس ما لم يَنْزِل عليهما، فقال القاسم: ما أبالي أيتهما كانت. ثم روى عن يونس، عن أنس بن عياض، عن بعض أصحابه، أن القاسم قال في هذه القصة: لا أبالي أي ذلك كان، إني آمنت به، وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء، وأنهما أنزلا إلى الأرض، فكان من أمرهما ما كان، وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد في مسنده رحمه الله.

خاتمة

1. تعد الآية (102) من سورة البقرة هي الأولى التي تتحدث عن السحر في ترتيب سور القرآن الكريم علماً أن السحر ربما كان حاضراً قبل تعالُقه – بحسب ما ورد في هذه الآية– بسليمان عليه السلام، والسحرُ له حضور أيضاً بشكل لافت في السور المتعلقة بموسى عليه السلام فيما وقع بوضوح في مجموعة من الآيات وفي غير سورة، ويمكن أن أشير إلى ما هو آتٍ فيما يخص الآية مدار البحث.
2. هناك تلقٍّ متشابه بين المفسِّرين للآية، وخاصة في سرد كثير من النصوص الخرافية التي تتعلق بالآية وخاصة خارج النص القرآني نفسه. (يُفضل أنْ يذكر كلام بعض العلماء فيما يخصُّ تضعيفهم لبعض تلك الخرافات في الموضع الذي وردت فيه).
3. النصوص الخرافية هي نصوص أدبية تتمتع بحضور خوارقي، ولها بنية قصصية تستثمر أساليب السرد وعناصر التشويق في طرحها.
4. النص القرآني (الآية) نص مفتوح على نصوص قرآنية في مواضع أخرى؛ إذ الآية الواحدة، حيثما وردت ترتبط بآيات أخرى متنوعة، مثل علاقة سليمان بالجن، وإبليس بآدم، وبداية الخلق.
5. النص القرآني (الآية) نص مفتوح على قراءات متنوعة – وهي كثيرة – حيث أثارت الآية مدار هذا البحث، كثيراً من البياضات التي يمكن للمتلقي أن يملأها ولا تسلم دلالتها النهائية ليبقى النص مفتوحاً لقراءات متنوعة.

قائمة المراجع

1. الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، تحقيق: محمد عوض مرعب، 2001م، مادة (س ح ر).

   Al-Azhari, Muhammad Bin Ahmad, Tahthib Al-Lughah, Dar Ihia'a Al-Turath Al-Arabi, Beirut, validated by: Muhammad Awad Mer'eb, 2001CE, lexical entry (s-h-r)

2. أدهم، إبراهيم، السحر، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط2، 1998م.

   Adham, Ibrahim, Al-Sehr, Dar Al-Bsha'er Al-islamiah, Beirut, 2nd ed., 1998 CE.

3. الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، مؤسسة دار الشعب، 1991م.

   Al-Alusi, Rawh Al-Ma'ani fi Tafsir Al-Qur'an Al-Azim, Dar Al-Sha'ab Institution, 1991 CE.

4. الأندلسي، أبو حيان، تفسير البحر المحيط، دار الكتب للملايين، بيروت، 1993م.

   Al-Andalusi, Abu Hayyan, Tafsir Al-Bahr Al-Muhit, Dar Al-Kutub lel-Malayyin, Beirut, 1993 CE.

5. حنبل، أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، (1421هـ-2001م)، (10/317-318)، الحديث رقم (6178).

Hanbal, Ahmad, Musnad Al-Imam Ahmad Bin Hanbal, validated by: Shu'aib Al-Arna'ut et. al., Al-Risalah Institution, 1st ed., (1421 H, 2001 CE), (10/317-318), Hadith no. (6178)

6. رجب، رانيا، حقيقة السحر بين الموروث والمنصوص، مكتبة الشروق الدولية، 2004م.

Rajab, Rania, Haqiqat Al-Sehr bayna Al-Mawruth wa Al-Mansus, Al-Shuruuq International Library, 2004 CE.

7. العودات، رايق، العين هي الحصبة والتداوي بالقرآن، دار عمار، 2007م.

Al-Awdat, Raiq, Al-'Aein hiya Al-Hasbah wa Al-Tdawi be Al-Qur'an, Dar Ammar, 2007 CE.

8. ليزول، رشيد، ومصلى، إدريس، الجن والسحر من المنظور الإسلامي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م.

Lizuul, Rashid, and Musala, Idris, Al-Jin wa Al-Sehr min Al-Manzur Al-Islami, Manshurat Muhammad Ali Baidun, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah, Beirut, 2001 CE.

9. الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعارف، بيروت، ط3.

Al-Zamkhshari, Al-Kshaf an HAqa'iq Al-Tanzil wa Uyuun Al-Aqaawil fi Wujuh Al-Ta'wil, Dar Al-Ma'arif, Beirut, 3rd ed.,

10. قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، لبنان، 1967م.

Qutub, Sayed, Fi Zilal Al-Qur'an, Dar Ihia'a Al-Turath Al-Arabi, lebnon, 1967 CE.

11. الشعراوي، تفسير الشعراوي، أخبار اليوم قطاع الثقافة، مصر، 1991م.

Al-Sha'rawi, Tafsir Al-Sha'rawi, Akhbar Al-Yawm, Qeta'a Al-Thaqafah, Egypt, 1991 CE.

12. الشوكاني، فتح القدير، دار الحديث، القاهرة، 1993م.

Al-Shwkani, Fath Al-Qdir, Dar Al-Hadith, Cairo, 1993 CE.

13. الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، 1988م.

Al-Tabari, Jami' Al-Bayan an Ta'wil Ayy Al-Qur'an, Dar Al-Fikr, Beirut, 1988 CE.

14. القرني، عائض، الحل، مكتبة العبيكان، الرياض، ط2.

Al-Qarni, Aaid, Al-Ayikan Library, Riyadh, 2nd ed.

15. ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1984م.

Ibn Ashuur, Al-Tahrir wa Al-Tanwir, Tunisian Library for Publication, 1984 CE.

16. الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، 1993م.

Al-Razi, Fakhr Al-Din, Al-Tafsir Al-Kabir wa Mafatih Al-Ghaib, Dar Al-Fikr, Beirut, 1993 CE.

17. القاسمي، محاسن التأويل، دار الفكر، بيروت، 1978م.

Al-Qasimi, Mahasin Al-Taw'il, Dar Al-Fikr, Beirut, 1978 CE.

18. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مؤسسة الرسالة، 2006م.

Al-Qurtubi, Al-Jami' li Ahkam Al-Qur'an, Al-Risalah Institution, 2006 CE.

19. أبو ديب، كمال، الأدب العجائبي والعالم الغرائبي، دار الساقي ودار أوركس للنشر، 2007م.

Abu Dib, Kamal, Al-Adab Al-Ajaa'ibi wa Al-'Alam Al-Ghara'ibi, Dar Al-Saqi and Oryx publications, 2007 CE.

20. عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار المعرفة بيروت ودار الفكر، 1945م.

Abd Al-Baaqi, Muhammad Fu'ad, Al-Mu'jam Al-Mufahras li Alfaz Al-Qur'an Al-Karim, Dar Al-Ma'rifa, wa Dar Al-Fikr, Beirut, 1945 CE.

21. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت.

Ibn Manzur, lisan Al-Arab, Dar Sadir, Beirut.